# الانسان والبحث عن الحقيقة

بقلم الدكتور رولو ماي ترجمة ميمي بشاي

هناك اتجاه جديد في العلاج النفسي يقوم على فكرة كير كجارد بان الشعور بالحرية الذاتية يعد اسمى ما في الوجود الانساني. فقد دلت خبرة عدد من المحللين النفسيين امثال رولومای مؤلف هذا الكتاب الذي نحن بصدد مراجعته . واريك فروم ، وجورج كيللي، ان مشكلة الانسان الاساسية هي الجبن عن مواصلة الواقع والهروب من مسؤولية الحرية . ولا شك ان ادماج فكرة حرية الفرد في منهج العلاج النفسي يشكل اتجاها جديدا يختلف عن ذلك الذي سار عليه علماء التحليل النفسي من اتباع فرويد . فقد كانت فكرة التحليل النفسي عن الانسان تقوم على التسليم بمبدأ الجبرية وحتمية السلوك في حين ان هذا الاتجاه الجديد يرى ان الانسان حر ومسئول عن تصرفاته وان المرض النفسي هو نتيجة التنصل من المسؤولية والصاقها بالاخرين او بالمجتمع .

يرى اصحاب هذا الاتجاه ان نظرية التحليل النفسي حطت من اهمية « الانا » ، ولم تعترف بحريتها في التصرف ، فجعلت« الانا » ضعيفة كالطفل الذي يحاول ان يمسك بزمام ثور هائج ( الغرائز) ويحاول عبثا ان يحد من تهوره . وعلى هذا الاساس رسمت صورة للانسان تسودها ظلال التشاؤم وتنعدم منها حرية البحث والخلق والابداع . فالتحليل النفسي يفرض بان هناك صراعا ازليا بين الانسان والحضارة او المجتمع ، وان هذا الصراع لا بد وان يسفر عن كبت للرغبات الحيوية التي لا تلبث ان تظهر في انماط السلوك العصابية المختلفة كالوساوس والخصار والهستيريا . وليس من سبيل امام الانسان للحيلولة دون قيام هذا الصراع الذي يحتمه موقف الطفل في الاسره وموقف الانسان في المجتمع ، وهو لذلك لا يعد مسؤولا عن سلوكه الذي حددته خبرات المهد والطفولة .

بيد ان نبذ مسؤولية الانسان على هذا النحو تهرم الاساس المنطقي الذي يقوم عليه علم الاخلاق ، اذ ان الاخلاق تقوم على مبدأ حرية الفعل باي شكل من الاشكال ، ولهذا كانت نظرية التحليل النفسي منافية لعلم الاجتماع . ولا شك ان دراسة السلوك دراسة علمية تحتم التسليم بنوع من الحتمية ولكن ليس ضروريا ان تكون هذه الحتمية مطلقة على النحو الذي جاءت به نظرية التحليل النفسي او نظرية التشريط Conditioning ولهذا قد يكون الاتجاه الى الجمع بين مبدأي الحتمية والحرية في السلوك الانساني محاولة ناجحة لفهمه على نحو لم تبلغه كل من النظريتين السابقتين اللتين اقتصرتا على دراسة السلوك المرضي وسلوك الحيوان دون التعرض للسلوك السوى .

وعلى هذا الاعتبار الجديد يتحول هدف العلاج النفسي من مجرد تبصير للمريض بخبراته الدفينة التي جبلت سلوكه الشاذ كما تقول نظرية التحليل النفسي ، الى تقبل عواقب هذه البصيرة وتحمل مسؤولية التصرف ازاءها . وبذلك يكون تعريف العصابي هو ذلك الفرد الذي تنم تصرفاته عن رغبة شعورية او لا شعورية للهروب من الحرية والمسؤولية . فالشخص المريض بالوساوس والحصار مثلا يقوم على اداء افعال تسلطية قهرية لا يقوى على مقاومتها ، ومصدر هذا الضيق هو الخوف من عواقب سعة الحيلة وحرية الفعل . واكثر المرضى العصابيين يتسمون بهذا الضيق الذي يشل كفاءتهم ويحد من قدراتهم العقلية حتى انهم يخفقون في ابسط اختبارات الذكاء التي تتميز بالمقدره على التصرف في مواقف اجتماعية معينه او تتميز بالسرعه .

ويوضح « ماي » هذا التطور الجديد في العلاج النفسي الذي يسميه البعض « التحليل الوجودي » بدلا من « التحليل النفسي » بالعودة الى تحليل الاساطير الاغريقية القديمة . وتفسيره لمسرحية « اوديب ملكا » التي كتبها سوفوكليس مثلا يختلف عن تفسير فرويد .

والاسطورة التي مسرحها سوفوكليس بعنوان « اوديب ملكا» معروفة ، وهي تتلخص في ان « اوديب » قتل اباه الملك « لايوس » بطريق المصادفة ، وتزوج من امه « جوكاستا » التي جلست معه على عرش طيبة واصبحت ملكته . وتنجب امه ابنان وابنتان . ولكن المدينة التي ابتليت بوباء فظيع في عهد « اوديب » حملت العرافين على التكهن بان الالهة لن يكفوا غضبهم عن المدينة حتى تظهر من قاتل « لايوس » . ويقوم « اوديب » بالبحث عن القاتل ، وفي اثناء البحث تنكشف الحقيقة المرة رويدا رويدا ، ويبدو على الملكة « جوكاستا » الفزع والذعر من عواقب البحث فتتوسل الى « اوديب » الا يحفل بنبوءة العرافين ، ويدور هذا الحوار بينهما وهو منقول عن ترجمة الدكتور طه حسين للمسرحية .

جوكاستا : اجتهد في ان تنسى هذا الكلام الذي لا يغني . بحق الالهة الا ما تركت هذا البحث ان كنت معنيا بحياتك الخاصة . ان شقائي يكفي . اني اضرع اليك في ان تسمع لي والا تمضي في هذا البحث .

اوديب : لا سبيل الى طاعتك . لا بد ان يتبين هذا اللغز .

جوكاستا : انا افكر في منفعتك ، وانصح لك في المشورة .

اوديب : نعم ، ولكن نصحك هذا يؤذيني دائما منذ حين .

جوكاستا : ايها الشقي : وددت لو جهلت دائما من تكون .

ويستمر البحث حتى يتكشف لاوديب سر مولده ، ويستبين له الامر كله فلا تتحمل « جوكاستا » عواقب المعرفة وتقتل نفسها اما « اوديب » فيفقأ عينيه حتى لا يرى ما جناه عليه القدر .

اتخذ فرويد من هذه الاسطورة الدليل على صدق فروضه الاساسية التي تقول بان الوليد يريد ان ينفرد بحب الام ولكنه يشعر بان اباه يقف حائلا دون تحقيق ما يريد ، ويتمنى لو

---

(١) عنوان الكتاب : «Man's search for himself» وهو للدكتور رولو ماي وقد اقتبسنا منه معظم الخطوط الرئيسية في هذا المقال كما اننا اعتمدنا على كتاب « ماي » الاخير بعنوان Existence في توضيح بعض النقاط الخاصة بالاتجاه الوجودي في التحليل النفسي.

استطاع ان يتخلص منه لينفرد بحب امه . ولما كان عاجزا عن تحقيق ما يريد فلا مفر من كبت رغباته لاشعوريا لتصبح بعد ذاك قوة حيوية خطرة وقد تدفع به الى السلوك الشاذ . ولهذا كانت مهمة المعالج للنفس تنحصر في حمل المريض على استعادة الذكريات الجنسية المكبوتة . اما « رولو ماي » فيرى ان هذا التفسير لعقدة اوديب يغفل امر هاما هو ان مشكلة « اوديب » لم تكن معرفة حقيقة مولده ، وانما كانت المشكلة هي وجوده بعد حصوله على المعرفة . « واوديب » لذلك لم يخص نفسه بل بل فقا عينيه مما يدل على ان المشكلة الرئيسية ليست البحث عن الحقيقية ( الجنس ) وانما كيف يشكل الانسان وجوده بين هذه المعرفة ـ وهل سيقبل مسئولية وجوده ام لا .

## مأساة الانسان المعاصر

ومأساة الانسان المعاصر هي عين مأساة « اوديب » . انه قد حقق المعرفة في كل ميدان من ميادين الحياة ، ولكنه اصبح اكثر جهلا بحقيقة نفسه مما كان في العصور المظلمه . لقد كان من آثار التقدم العلمي الذي احرزه القرن العشرون ان اصبح المجتمع عملاقا في حين ارتد الانسان الى قزم ضعيف . فهو مضطر الى التنازل عن كثير من الحريات الشخصية في سبيل تحقيق الامن ولقمة العيش . فالاختبارات تحدد له ميوله وقدراته ، ودور الصناعة تحدد له مهنته وكسبه ، والمجتمع يحدد له سكنه وطريقة حياته ومستقبله . ان المجتمع الحديث كله قيود صارمه لافكاك منها بحيث اصبحت قدرة الانسان على الخلق والابداع مرهونة بالهيئة او السلطة التي تشرف عليه في حين ان الخلق والابداع يأبى السيطرة والالتزام . فالحرية الذاتية اثمن ما في الوجود الانساني ، والانسان الذي يفضل التبعية على الحرية يبيع نفسه ويعتذر عن وجوده كانسان اذ انه يعترف بانه وحده ليس بموجود ، وانما يتعلق وجوده بالسلطة او الهيبة التي تمنحه قدرا معلوما من الحرية .

واخيرا تمخض هذا الموقف المهين للحرية الانسانية في بعض الاعراض التي يشكو منها المجتمع المعاصر : كالشعور بالوحدة والقلق والفراغ . فعلى الرغم من انتشار وسائل الاتصال كالراديو والتلفزيون والسينما والمسرح الا ان انسان القرن العشرين يشعر بوحدة قاتلة في قرارة نفسه . ومن العجيب حقا ان يزداد هذا الشعور بين الناس كلما ازداد عددهم . فاكثر المدن ازدحاما بالسكان مثل نيويورك او شيكاغو اعظمها اثرا في الشعور بالوحدة والفراغ . ومما يدل على افتقار هذه المدن الصاخبة الى الحياة الطبيعية رواج اندية التعارف والزواج، وكان الفرد الذي يعيش في هذه المدن لا يستطيع ان يحصل على صديق او صديقة الا بالاعتماد على سلطة خارجية تهيء له السبيل ليمارس حقوقه الطبيعية كانسان .

ويبدو قلق الانسان المعاصر على حريته المفقودة في الشعور بالسام والفراغ والاقدام على افعال تتسم بالشذوذ والغرابة مثل ما جاء عن ذلك السائق الذي نشرت قصته الصحف الاميركية منذ عهدقريب، ولعله يمثل مظهرا من مظاهر الازمة التي يعانيها الانسان الذي سجنه العصر الالي :

وتتلخص القصة في ان سائقا لاحدى السيارات العمومية استقل سيارته العامة متابعا سيره في الطريق المرسوم له بين مركز المدينة واحدى ضواحيها . ولكنه تلفت حوله فوجد سيارته خالية تماما من الركاب . وانتابه شعور بالرغبة في الانطلاق بالسيارة خارج الطريق الذي سار عليه طيلة الاعوام التي امضاها بالشركة . وسرعان ما سيطر عليه هذا الشعور فعلا فانطلق بالسيارة العامة صوب الجنوب واستمر في سفره حتى بلغ شواطيء فلوريدا في اقصى جنوب الولايات المتحدة . وهناك امضى يوما سعيدا في حياته قبل ان يلقي البوليس القبض عليه ويوجه له تهمة سرقة سيارة عامة وتبديد اموال الشركة .

ولو ان الحادث اقتصر على ما سلف ذكره لاكتفينا بالقول ان ذلك السائق مريض في حاجة الى علاج . ولكن الحادث كشف عن مشكلة اجتماعية خطيرة . فما ان ترامى الخبر الى سكان مدينة نيويورك حتى قام عدد كبير منهم باستقبال السائق العائد استقبال الابطال ، وانهالت الخطابات على شركة السيارات العامة التي كان يعمل فيها السائق مطالبة بسحب دعوى الاتهام .

ان الناس لم تنظر الى السائق على انه سارق او مريض ، وانما راوا فيه بطلا حقق لهم رغبة دفينة في الانطلاق والتحرر من القيود الصارمة التي فرضها المجتمع . ان كل فرد منهم كان يشعر بالسام او الضيق الذي عاناه السائق ، ولكن كانت تنقصه الشجاعة التي يتطلبها موقف الحرية الذاتية . وهكذا حقق السائق هذه الحرية ، ولم تجد الشركة ـ تحت ضغط الراي العام ـ بدا من التنازل عن دعوى الاتهام واعادة السائق الى عمله .

وقد عبر عدد من ادباء الكارثة عن عقم وضياع الانسان الحديث بصورة او اخرى . ولعل تلك القصيدة الشهيرة التي كتبها الشاعر المعاصر ت.س. اليوت بعنوان « الرجال المجوفون «The Hollow Men» تعبر تعبيرا صادقا قويا عن شعور رجل القرن العشرين بضعفه وعقم حضارته:

نحن الرجال المجوفون
نحن الرجال المحشوون
يستند بعضنا الى بعض وقد حشيت رؤوسنا بالهشيم . فواسفاه!
كلما همسنا خرجت اصواتنا الجافة هادئة خالية من كل معنى
كانها صوت الريح على الحشائش اليابسة
او دبيب اقدام الجرذان وهي تمشي على الزجاج المكسور في مخابيء بيوتنا .
نحن اشكال بلا قوالب ، نحن ظلال بلا الوان
نحن قوى مشلولة ، نحن اشارات بلا حركة (٢)

ان مصير الانسان المحزن الذي عبرت عنه هذه الابيات لم يكن وليد ساعته انما جاء في اعقاب تطورات وانقلابات فكرية واقتصادية لا يمكن اغفالها لانها تشكل جذور الازمة ، ازمة الحرية الانسانية .

## جذور الازمة

تمتد جذور الازمة التي تكشفت لنا اعراضها في القلق والوحدة والفراغ بضعة قرون الى الوراء . ففي عهد الاصلاح الديني حتى القرن السابع عشر كان يظن ان الانسان هو مركز الكون . ولم يقم هذا الايمان على اساس العقل وانما قام على اساس الوحي. لقد فسر رجال الكنيسة حقيقة الانسان بانها سامية ازلية لانها جاءت على صورة الله . لقد خص الله الانسان باسمى مرتبة في الوجود بعد ان خلقه على صورته وجعله قيما على الكون كله ، ولذلك كان عليه ان يسعى لتحقيق المباديء الاخلاقية التي نصت عليها الكنيسة . وكان المثل الاعلى للانسان هو ذلك الرجل الذي نظم حياته ووقفها لتحقيق غاية هامة وهي خدمة الله . والسبيل الى ذلك يكون بتطهير النفس من الخطيئة واتمام الواجب بانضباط دقيق وضمير واع بالمسؤولية . وصف الشاعر ملتون هذاالرجل فقال عنه :

« انه لم يرتكب اثما في شبابه او في رجولته
وكل مراده السيطرة على الذات وسيادة الفكر والقول والعمل
ولذا تميزت طلعته بالوقار والاحترام
واتسمت حياته بالانتظام والاعتدال . »

وظل هذا المثل الاعلى يحمل الناس على الايمان بقيم تطهير النفس والسمو والتضحية وسيادة الفكر والقول والعمل وما اليها . ولكن التطور الفكري الذي جاء في اعقاب الكشوف العلمية الهائلة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حطم عددا هائلا من المعتقدات القديمة بشان

(٢) من ترجمة الدكتور لويس عوض في كتابه « في الادب الانجليزي الحديث » ص ٣١٦

الكون الذي كان ارسطو قد وضع خطوطه الرئيسية . وجاءت كشوف نيوتن فذهبت بعدد اخر من المعتقدات ، ثم جاءت ثورة ديكارت الفكرية على كل اعتقاد او مبدأ لا يسلم به العقل . وهكذا بدأ العقل يستولي على المكانة التي كانت للوحي وبهذا اصبح السبيل ممهدا لسيطرة العقل الانساني على كل شيء . وظن المفكرون ان استتباب سلطان العقل دليل على اقبال عصر كله سعادة وخير ورخاء تحطم فيه الانسانية قيودها وتنطلق في سبيل الحق والخير . وتحامل المفكرون على الدين واحالوه الى مجرد نظام فلسفي ، وتعرضت النبوءات والمعجزات وفكرة التطهير الروحي نفسها الى نقد مدمر . فاعلن نيتشه مثلا ان الله قد مات وانه يتعين على الانسان ان ينصب لنفسه قيما جديدة تقوم على منطق التطور الذي كشفت عنه نظرية دارون . وكذلك اعلن مفكرون اخرون ان تطهير النفس مرادف للوسوسية والمرض النفسي . ولكن تحامل المفكرين على المعتقدات والاديان لم يمنعهم من الاعتقاد بان قانون التقدم الاجتماعي هو الحقيقة الكبرى . وكان هربرت سبنسر يذهب الى ابعد من ذلك ليقول بان قانون التقدم الاجتماعي فرع من فروع التقدم الكوني العام الذي يشمل نظام الطبيعة برمته .

واخذت فكرة التقدم بعد ذلك تحتل مقام الافكار الدينية . وفكرة التقدم في معناها الواسع تتضمن الاعتقاد بان العالم يتدرج في سبيل الكمال تدرجا شاملا ، وينتقل على الدوام من حسن الى احسن . وكانت هذه الفكرة مقبولة من الوجهة النظرية حينما كان يظن ان الله قد اختص الانسان بعنايته . اما وقد ظهرت نظرية التطور وتبين منها ان الانسان لا يختلف جوهره عن سائر الحيوانات فان فكرة التقدم تحولت الى عملية الية تسفر عنها قوى الطبيعة العمياء. وهكذا اصبح التقدم لا يرتبط بالاخلاق لانه يقوم على تنازع البقاء وعلى قوى الطبيعة الخفية التي وصفت بانها « حمراء المخلب والناب » .

وتاكدت هذه النتيجة لفكرة التقدم في الميدان الاقتصادي . حقيقة ان انجلترا مرت بفترة ازدهار مادي الا ان هذا كان لفترة قصيرة حتى تمكنت الدول الاوروبية من اللحاق بانجلترا في المنافسة التجارية والصناعية . واخذت هذه الدول بعد ذلك تعتمد على استعمار الدول المتخلفة في تصريف الانتاج . وخلفت المنافسة التجارية والصناعية مشاكل لم يعرفها الناس من قبل كالبطالة ، وقلة الاجور ، وازدحام المدن وانتشار الجرائم ، والاضطرابات والحركات العمالية ، واختتمت هذه السلسلة المتلاحقة من المشاكل بحرب مدمرة استخدمت فيها اسلحة الهلاك والخراب . وعند ذلك بدأ نفر من المفكرين يتراجع عن حماسه لمنطق العقل وفكرة التقدم . فالتقدم البشري لم يعد ممكنا ، والحضارة الاوروبية كادت تنهار ، وبدا جليا ان كارثة ما ستحيق بالناس وتقضي على حضارتهم . ولم تقتصر اثار الشعور بوقوع كارثة على طبقة دون سواها من طبقات المجتمع ، وانما جاء التصدع ممتدا امتدادا طوليا في المجتمع وان تاثرت به طبقة بصورة اقوى من غيرها . وعبر الادباء عن هذا بانفعالات مختلفة . فمنهم من غمرته موجة التشاؤم فخرج على المسيحية وامن بنوع من الجبرية الحزينة التي تصور تفاهة الحياة مثل توماس هاردي ، ومنهم من كفر بالعلم والثقافة وحذر الانسانية من شرهما مثل د.هـ. لورنس ، ومنهم من حل في ياس مميت كاد يفقده الثقة بالحياة لولا اهتداؤه الى الفلسفة والدين كالشاعر المعاصر ت.س.اليوت.

وقد كشفت مسرحية الكاتب الاميركي ارثر ميللر « موت بائع متجول» عن مظهر من مظاهر الانهيار في الحضارة ، فصورت قطاعا في المجتمع وقد ضاق بابنائه ، واختفت منه القيم الانسانية التي آمن بها الاسلاف من قبل كالاخاء والمحبة ورعاية الجار . فبطل المسرحية بائع متجول مخضرم لانه عاش في عصرين متلاحقين تبدلت فيهما القيم الانسانية من مبدأ : « عامل جارك كما تحب لنفسك » الى مبدأ : « عامل جارك كما لو كان عدوك لان نجاحه يعني سقوطك». وهو لايستطيع ان يوفق بين هذين المبدأين المتناقضين ويعجز عن التكيف لمطالب المجتمع الالي من دهاء ومكر ورياء . وعبثا يحاول ان ينقذ اسرته من الجوع والضياع خصوصا بعد ان فصلته الشركة من العمل فلا يجد مفرا من الانتحار .

## الحرية والشعور بالذات

انتهت فكرة التقدم التي عقد عليها المفكرون الامال باخلاف الظنون ، وتبعها الشك في مقدرة العقل على تحقيق التقدم واصبح المجال مفتوحا امام النزعات المتمردة على العقل سواء أكان ذلك في الفلسفة ام في علم النفس الذي لايمكن ان يكون بمنأى عن الاتجاهات الفلسفية . وكان من اهم صور التمرد ماجاءت به الفلسفة الوجودية وفلسفة الظواهر. فالفلسفة الوجودية تقوم على اساس ان ثمة جوانب من الواقع الانساني لاتتكشف من خلال النظرة العقلية . وفلسفة الظواهر Phenomenology او الظاهرية تقوم على منهج ذاتي لايستند الى نتائج البحوث الموضوعية العقلية . وقد اخذ بعض المنظرين في العلاج النفسي امثال رولد ماي ببعض المبادىء التي قالت بها هاتين الفلسفتين وتتلخص في اعتبار الانسان لا الحقائق او الموضوع نقطة البدء في فهم السلوك الانساني . فالفلسفة الوجودية اكدت ان الانسان هو الكائن الوحيد الذي يستطيع ان يشعر بذاته وان الحقيقة لاتتكشف له الا من خلال هذا الشعور الداخلي العميق . اما العقل او دراسة الانسان كموضوع فلا يمكن ان يصل بنا الى الحقيقة اذ ان العقل يقتصر على النظر من الخارج . « وليس اعمق في التناقض من ان احاول البحث عن « الوجود » خارج ذاتي ، لان كل ما قد اعثر عليه في الخارج لن يكون الا مجرد ظاهر او مظهر بالقياس الي . واما اذا حاولت ان انفذ الى اعمق اعماق « ذاتيتي » ، فهنالك قد يكون في وسعي ان اصل الى الكشف عن « الوجود الحقيقي ». ومعنى هذا انني حينما انقب في باطن ذاتيتي ، فانني لابد ان اهبط الى ذلك القاع الدفين الذي فيه اجد جذور الوجود العام ! » (٣)

فالحقيقة تنبع من الشعور العميق بالذات ، ولما كانت الذات الانسانية لاتمتع بوجود ثابت تتطابق فيه دائما مع نفسها ، بل نحن في صيرورة دائما كان لزاما عليها ان تفصل بحريتها في صميم حياتها ، أي ان الانسان لابد وان يشعر بالقلق بسبب وجوده ككائن يشعر بذاته ، وهذا القلق هو الذي يضعه وجها لوجه امام حريته وامام اختياره الذي لايستطيع احد سواه ان يحققه .

وفي بعض الابحاث النفسية مايشير الى صدمة هذا التفسير الفلسفي لحرية الانسان . فنظرية « كارل روجرز » مثلا تقوم على فكرة اعطاء المريض دورا ايجابيا في علاج نفسه باعتباره وحده ـ لا المعالج كما هو الحال في نظرية التحليل النفسي ـ يستطيع ان ينفذ الى اعماق ذاتيته ليكتشف حقيقة نفسه . وكذلك اظهرت تجارب « دولار و ميللر » ان شخصية المريض العصابي neurotic تتسم عادة بضيق الافق في التفكير والشعور بالاسر المحيق بالذات واقتصار السلوك على اتجاهات محددة . وكتب « اريك فروم » كلها تدور حول معنى الحرية للفرد وهو يقابل بين شخصية المريض وشخصية الهارب من الحرية سواء أكان ذلك عن طريق التسلط او السادية او العزلة او الرغبة في التحطيم . ونظرية « جورج كيللي » تقوم على محاولة فهم المواقف التي يتعلق بها المريض والابنية الفرضية Construct systems التي يستجيب لها سلوكه ، ونظرية « رانك » تنتقد الاقتصار على تحليل خبرات المريض عند علاجه وترى ضرورة الاهتمام بوجهة نظر المريض نحو الحاضر والمستقبل . وهناك عدد اخر من المنظرين ـ بل والادباء ـ الذين يجمعون على ان المشكلة الاساسية في المرض النفسي هي تقلص الذات وشعورها بالضالة والعجز في معترك الحياة .

وتعريف النضج النفسي في كتب علم النفس لايختلف كثيرا عن

(٣) زكريا ابراهيم : « الفلسفة الوجودية » . دار المعارف ١٩٥٦ ص٣٦

ذلك الذي اشارت اليه الفلسفة الوجودية من كونه مرادفا للشعور بالحرية وتقبل المسؤولية . فالنضج النفسي لايتم الا بعد ان ينفذ الفرد الى اعماق ذاته بخبراته وافعاله ويكشف حقيقة نفسه كفرد مميز اوحد يختلف عن كل مصدر تعلم في كنفه . وليس من شك ان هذا الشعور بالتفرد والتمايز عن الغير من شانه ان يحمل الفرد على الشعور بالقلق والخوف من العدم ، ولكن هذا هو الباعث على الفعل والوجود . فكما ان « اوريستز » في الاسطورة الاغريقية لم يحقق وجوده كانسان الا بعد ان استقل عن سيطرة امه « كليتمنسترا » ، ولم تحكم له الالهة بالعفو الا بعد ان عذبه القلق بسبب ما اقدم عليه من فعل ، فكذلك مصير كل انسان . انه لن يحقق وجوده وحريته الا حينما يشعر بانه كائن متفرد وان ذاته ليس لها نظير ، وان عليه وحده تقع مسؤولية وجوده.

وكما تصور اسطورة « اوريستز » ارتباط القلق بالاستقلال وملازمته للحرية ، تكشف اسطورة الخلق عن صدق الدليل على ترادف المسؤولية بالحرية . ان ادم وحواء في اسطورة الخلق لم يدخلا في اعتبار التاريخ ولم يحققا وجودهما الا بعد قبولهما للمسؤولية : « بعرق جبينك تاكل خبزك » . كانت هذه المسؤولية هي النتيجة الحتمية لممارسة الحرية في عصيان يهوه . وهكذا سقطا وطردا من الجنة ليكتب لهما تاريخ .فالاسطورة في الواقع لاتمثل سقوط الانسان وانما ارتقاءه واستقلاله . فالسقوط هنا ـ على حد تعبير كير كجارد ـ سقوط الى اعلى .

ولما كان البحث عن حقيقة النفس يكشف عن ذات فريدة في حالة صيرورة دائمة فان تطورها بالخلق والابتكار يصبح ممكنا . كل انسان يستطيع ان يصبح كبروميثيوس الذي سرق النار المقدسة وتقبل في سبيل ذلك عذاب الصلب على جبال القوقاز حيث كانت الطيور الجارحة تتغذى على كبده . فالنار ترمز الى الخلق لانها الوسيلة التي يسرت للانسان التفوق في العلوم والفنون . وكل ذات تقدم على الخلق على هذا النحو تتعالى على نفسها وتصبح خالدة في الزمن كما يتبين من تحليل الشيطان زمنا طويلا ، وانفق مايستطيع لاغوائه ، ولكنه لم يظفر بنفس شخصية « فاوست » في المسرحية التي كتبها « جوته » . لقد حاوره فاوست لانه مازال على كلفه باللذة طامحا الى شيء عجز الشيطان عن ان يوصله اليه ، وذلك هو مقدرة النفس على الخلق والابتكار .

يستطيع الانسان اذن ان يحقق وجوده بنفسه ، وان يجعل لحياته اهداف الخلق والابداع ، وان يلصق بعالمه معنى ومغزى . ان يستطيع ان يختار هذا او يحجم عنه مفضلا الاحتماء بالمجموع ليحقق له الامن والراحة او الكسب ، ولكن مصيره حينذاك يكون كمن كسب العالم كله وخسر نفسه .

والعلاج النفس لايمكن ان يتجاهل هذه المفاهيم الجديدة التي خلت منها نظريات التحليل النفسي والتشريط ، وهي ـ عند كير كجارد على الاقل ـ تنطوي على قدر كبير من التفاؤل بمستقبل الانسان كما تفسر الاسباب التي حملت انسان القرن العشرين على فقد الثقة بالقيم التي خلفتها الفلسفة المثالية والفلسفة العقلية فاحس بالضياع والفراغ والقلق . ان التيار الوجودي في العلاج النفسي يحملنا على اعتبار وجهة نظر المريض وعالمه وخبرته الذاتية اساسا للبحث عن حقيقة النفس،وان ذات الانسان لايتسنى فهمها صحيحا الا من الداخل.من الفعل والاختيار والاستقلال. وما القلق او التوتر والعدوان الا مظاهر عادية تشكل الواجهة الخلفية لحرية الفرد ووجوده . ولذلك لايمكن ان يقتصر العلاج النفسي على « تحليل » او « تكثيف » هذه المظاهر او التخلص منها لانها اساس الوجود الانساني . ولكن مازال هذا الاتجاه الجديد بحاجة الى منهج علاجي يقوم بترجمة المفاهيم الوجودية الى خطة عملية يمكن للمعالج النفسي ان يستخدمها ويتحقق عن طريقها من صدق اثر هذه المفاهيم في تطور العلاج النفسي وتقدمه .

# معاناة ...

... وابعد مما وعته الاساطير اهواك
احزن مما ببال القمر
اعيش على الوهم عمري ..
على ما يلوّن لي من صور
وتعلم عيناكِ ، ان السفينة تنطر
في غرفة اليوم دعوة مرفئها المنتظر
وان ليالي في سرحة الموج احلام اشرعة
ضارعات الصواري ..
تباوح حزن المطر
وتعلم عيناك ان الجراح بصدري
وفوق جبيني كثار
واني بحار حزن يغرّب بين البحار
واني في صمت رحلتي الشارده
احن لعينيك ، للنظرة الطفلة الواعده
يمينا ، وعمر الليالي حنين
وقلب الليالي ضنين ،
يمينا بعينيك اني اكابر ، تذبحني اللهفة الماردة
ويوما لمحتك عبر سرابي
وعشت بعينيك عمر عذاب ، يغني عذابي
شعرت بانك يا ما تعانين من وقع لحني
وانك مثلي ـ اثيرة عيني ـ
تطوف بجفنيك الوان حزني
ويوما شعرت ـ وياما شعرت ، باني ..
وابعد مما وعته الاساطير اهواك
ابعد مما يقولون عنك وعني

دمشق

فايز ملص